إختبار الإيمان

ترجمة لبحث
كتبه بالانكليزية
مأمون عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام على نوح في العالمين.. إنه من عبادنا المؤمنين.. وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم.

القرآن، سورة الصافات، الآيات ٧٩، ٨١، ٨٣، ٨٤

ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا.

سورة النساء، الآية ١٢٥

قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.

سورة آل عمران، الآية ٩٥

إذ ندرس الآيات التقدمية لبحثنا هذا، لَندرك على الفور أن الساعي في الإيمان قد أُمِر بجلاء أن يتبع ملة إبراهيم، الذي صدق في إيمانه وصار مثالا لكل المؤمنين؛ وكان خليل الله.

دين التوحيد

عدة أسباب توجب اتّباعنا لإبراهيم. فنحن نعلم أنه قد عبد الله بقلب سليم، وبقي ثابتاً ومخلصاً في إيمانه، وكان مطيعاً تقياً. وثمة ميزة بارزة أخرى كانت في حياة إبراهيم ألا وهي أنه كان حريصاً أشد الحرص على ألاّ يشرك مع الله إلهاً آخر، لإيمانه الراسخ بأن الله هو الإله الواحد الحق. ومن هنا أن إبراهيم قد عُرف لدى الأديان الكبرى الثلاثة بأنه أبو التوحيد، أي الإيمان بالله الواحد الأسمى وبأن لا إلٰه سواه.

وعندما عبّر إبراهيم عن نيته في الإيمان ـ كما نعلم من الكتب المقدسة ـ تحول عن تقليد الشرك الذي كان عليه أهله وأوصياؤه الأرضيُّون، وبحزم توجه بعبادته نحو وليّه السماوي. وهذا يقيناً هو التعبير الصحيح عن التوبة. فما التوبة غير هجران الذنوب، وأداء العبادة الصادقة لله الأحد ذي الجلال والإكرام.

التَّوبة

لِنلق نظرة أقرب على موضوع التوبة. يتبيّن لنا أنه في التعبير الحقيقي عنها، يتحتم وجود رغبة في التخلص من جميع التأثيرات الفاسدة أو الشريرة. ينبغي القضاء على عناد الإنسان وكبريائه إذا هو نوى الخضوع حقاً للعليّ القدير. وهذا أمر في غاية الضرورة. إنّ الخضوع، باتضاع، هو شرط في الميثاق، أو العهد، الذي عرضه الله نفسه؛ إذ تخبرنا الكتب المقدسة أنه سبحانه يعدنا بأن يستجيب لأدعيتنا ويغفر لنا ذنوبنا ويبرئ أرضنا، إنْ نحن وفينا بالجزء المترتب علينا من هذا العهد:

فإذا تواضع شعبي الذين دُعي اسمي عليهم وصلوا وطلبوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الرديّة فإنني أسمع من السماء وأغفر خطيتهم وأبرئ أرضهم.

كتابات الأنبياء، أخبار الأيام الثاني ٧:١٤

حتى يصبح القلب سليماً، لا بدّ من نفي جميع العناصر والرغبات الآثمة عنه. لكننا، ككائنات بشرية جسدية، لا نملك بالطبع القدرة على أن نصل ببساطة إلى قلوبنا ونجتث منها كل التلوث. ولا نحن نستطيع أن نعفو عن ذنب الخطيئة وأن نزيله من سجل التجربة الإنسانية. إنما الله وحده قادر على أن ينجز هذه الأعمال الروحية الفذة.

مع ذلك، فإننا أكيداً نحوز على قوة الإرادة لأن نرغب أشد الرغبة في أن تمحي من حياتنا جميع الأفكار والأعمال الآثمة. ويتعين أن تكون هذه الرغبة مخلصة إذا كان لدينا أمل في أن نكون جديرين بخدمة الله. وبلا ريب تلك هي الرغبة وذلك هو القصد، اللذان أراد الله أن يراهما متمثلين في حياة النبي إبراهيم وفي جماعة متّبعيه.

إختبار الإيمان

نقرأ في آياتٍ أخرى من القرآن:

وقال (إبراهيم) **إني ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين. فبشرناه بِغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بُنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمَر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتلّه للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقتَ الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين. إنّ هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم.**

سورة الصافات، ٩٩-١٠٧

في اثر تلك الآيات، يمضي القرآن في

نور الحق

مجلة دورية توزع مجانا، وتصدر باللغتين العربية والإنكليزية. لتحصل على نسخ أي عدد، أو في أية مراسلة، أكتب إلى:
Noorul Haq, P.O.Box 583279, Minneapolis, MN. 55458-3279, USA

An Arabic\English periodical distributed free of charge. To obtain copies, or in any correspondence, write to:
Noorul Haq, P.O.Box 583279, Minneapolis, MN. 55458-3279, USA

NOOR UL HAQ

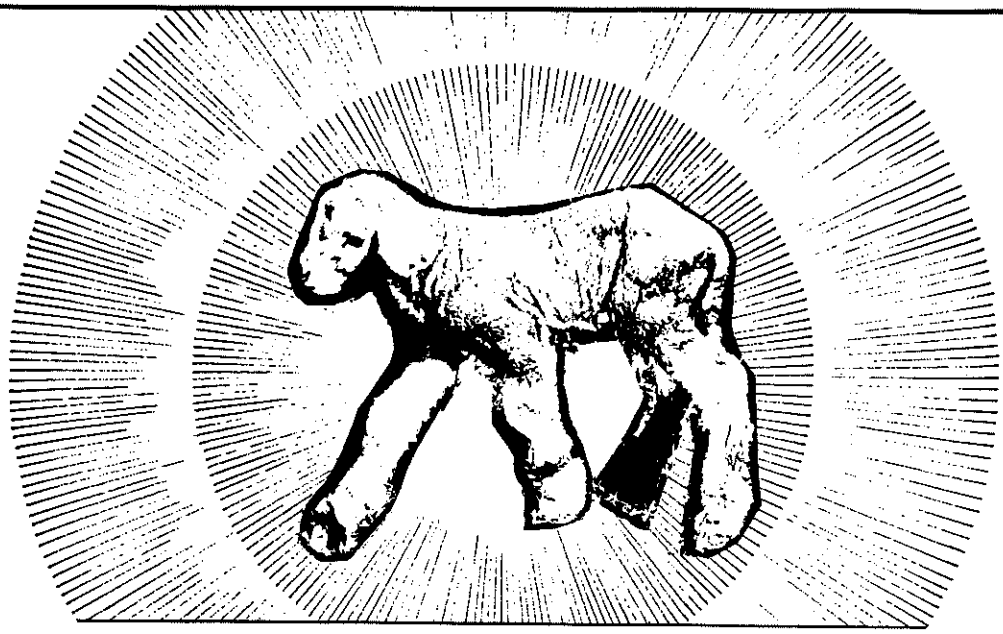

فهمنا لتضحية القربان
ـ وسيلة الإنسان
إلى قرب الله ـ
سيفضي بنا إلى فهم
أعمق كثيراً
للأضحية القدسية الكاملة

سرد قصة إبراهيم وابنه على نحو ما يلي:

وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين.

سورة الصافات، ١٠٨-١١٣

تسليم إبراهيم

هكذا يتّضح لنا، من تفحّص هذه الآيات، أنه حتى إبراهيم لم يكن مستثنى من تعرضه لاختبارات الإيمان. فها هو في مرحلة دقيقة جداً من رحلته الروحية، يدخل فيها إلى امتحان كبير. كان هذا النبي الورع قد أعلن أن صلاته وحياته ومماته هي لرب العالمين. والآن، ماذا عن ابنه الحبيب إليه؟ هل سيكون مستعداً لأن يتخلى عن ولده الذي عنى له الكثير؟ هل سيقبل أن يسلمه لله تسليماً تاماً كأضحية؟ لقد ذكر الله الشرط واضحاً: تجب التضحية بهذا الإبن! فكيف سيستجيب رجل الإيمان إبراهيم؟

نعرف أنه قد استجاب، مرة أخرى، بقلب سليم. نعلم أنه قد أذعن حقاً لإرادة الله، فكان المثل الأعلى للإسلام السليم. تهيأ والسكين في يده ليقدم لربه ما كان أثمن وأعز ما عنده. هكذا، اجتاز إبراهيم الإمتحان. كانت نيّته بيّنة. لقد صمم على أن يعمل ما أمره به الله، وشرع في تنفيذ الأمر. لكن الرحمن إذ رأى صفاء نيّة إبراهيم، أوقف يد هذا النبي عن متابعة التنفيذ. فبرحمته تعالى أبقى على حياة الإبن الأثير لإبراهيم.

التضحية الكبيرة

نود الآن أن نلاحظ حقيقة هامة تتعلق بتسليم إبراهيم، كما سجّله القرآن. إن هذه القصة لا تنتهي ببساطة مع إطلاق إبن الخليل. بل نقرأ تابعاً هذه الكلمات: "وفديناه بذبح عظيم".

يذكرنا القرآن هنا أنّ إبن إبراهيم لم يُعتَقْ ببساطة من الموت القرباني. وإنما جرى فداؤه بضحية أخرى قُدّمتْ بديلا عنه. وبوسعنا أن نبلغ مزيداً من الإدراك لما حدث فعلا هنالك، إذا نحن قصدنا التوراة حيث نقرأ ما يلي:

فلمّا أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مدّ إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم. فقال هانذا. فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا. لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني. فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يرأه. حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يُرَى.

التوراة، تكوين ٢٢:٩-١٤

تضحية الفداء

يتضح لنا من المراجع الكتابية الآنفة الذكر، أن تضحية قد تم تقديمها فعلا. هل خطر لك أن تتساءل، لماذا لم يدَع اللهُ إبراهيمَ يغادر ذلك المكان ويعود إلى بيته بعدما برهن على تسليمه التام؟ هل تساءلت لِمَ بقي لازما على إبراهيم أن يقدم أضحية؟ إنّ الجواب عن هذين التساؤلين يكمن في عبارة القرآن ذاتها: "وفديناه بذبح عظيم".

تصبح الكلمة "وفديناه" هنا في غاية الأهمية. إن فداء أو افتداء شيء ما أو شخص ما، يعني تحريره أو أسترداده بواسطة دفعة ـأيْ ثمنـ تعطَى في المقابل. ولقد حُرّر إبراهيم؛ ولكن فقط بالإستعاضة عنه بأضحية أخرى. والسؤال الذي ينطرح ههنا: لماذا كان ضرورياً تقديم تلك الأضحية البديلة؟

من المفيد لنا، قبل الخوض في هذا الموضوع، أن نمنح ملاحظة خاصة لواقع أن الكلمة الأكثر ترابطاً واقتراناً بالتضحية هي كلمة القربان. وهو تعبير بالغ الشأن؛ إذ يعني حرفياً: الوسيلة التي بها ينال الإنسان قرب الله. ولا يغربنّ عن البال أن الجنس البشري، الذي هو في حالة السقوط منذ آدم، لا يستطيع ببساطة وبحرية تلقائية أن يدخل إلى قرب الله القدوس.

حري بنا أن نتذكر دائماً أن هناك دَيْناً يتوجب أن ندفعه، وهو ناجم عن الخطيئة الشاملة التي أتانا بها سقوط آدم. وعندما ترضخ نفس الإنسان لهمسات ووسوسات الشيطان، فإنما هذا الإنسان يكون في إثم ضد رب العالمين. وهكذا يتحتم عليه، في ميزان العدل والتناسق، أن يقدم التعويض عن خطأ حين يقترفه. ثمة دَيْن لا بد للمدين من أن يسدده.

←

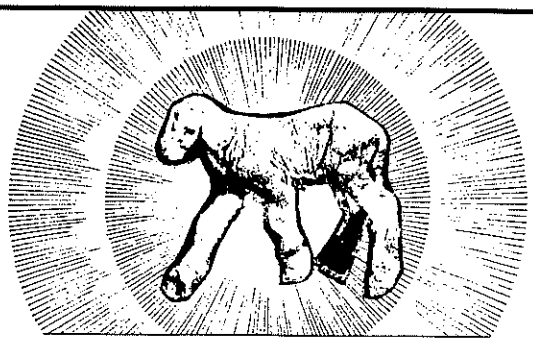

ما يدفعه الإنسان تسديداً لمثل هذا الدين، يُعرف بالكفّارة؛ وهو متطلّب من كل مخلوق تحدر من صلب آدم. والسبب واضح؛ فعندما طُرح آدم خارج الجنة، طرحتْ معه بذرة بنيه جميعا. أجل، نحن كلنا "ساقطون". ولا شك في أننا، إذ نعيش حالة الظلام والإثم هذه، نستحق أن نُمحَق من على وجه الأرض! والعقوبة القصوى لخطيئة البشر التي تفتري على ذات طبيعة الله وقدسيته، لا يمكن أن تكون أقل من عقوبة الموت. ولهذا السبب، لله سبحانه وتعالى كل الحق في أن يطلب حتى حياة ابن إبراهيم الذي كان هو أيضاً من نسل آدم. إنتبه إلى المعنى المتضمّن في الآية التالية من القرآن:

ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

سورة فاطر، الآية ٤٥

هل انتبهت إلى التوكيد في هذه الآية؟ **"ما ترك على ظهرها من دابة"**! وما أصدق ذلك. ولا حتى نوح أو إبراهيم كانا ليُتركا. ويثبت الإنجيل "ضياع" ذريّة آدم إذ يعلن:

لأنّ الجميع أخطأوا ولم يبلغوا إلى ما يمجّد الله.

الرسالة إلى روما ٣:٢٣

علامة رحمة

أجل، تستحق البشرية أن تباد من على وجه البسيطة؛ بيد أن الله قد أمسك عن تنفيذ هذا المصير لها. إن الرحمٰن الرحيم قد شاء أن لا يمارس حقه المشروع في إهلاك الناس أجمعين معا. عوضاً عن ذلك، ورغم المشهد المؤلم لاستمرار الخطيئة، فإن العلي الكبير قد خصص فترة ممدودة من الزمن فيها قد يتوب الرجال والنساء ويرجعون إلى بارئهم الغفور الودود.

وعلى هذا النحو أحجم تعالى عن تنفيذ المصير المستحَق في شأن إبراهيم. بل وأكثر من ذلك، عمد الله برحمته الفائقة إلى تزويد نبيّه الخليل بكفارة استرد بها ابنه من موت محقق. لقد منّ الله بالقربان بديلا عن ابن إبراهيم على المذبح. ويقيناً أن إبراهيم، بفضل هذه الرحمة الإلهية، قد ازداد فؤاده دنواً من ربّه الأوحد.

جدير بإعادة التنويه به أن القرآن يشير إلى تلك التضحية على أنها "ذبح عظيم". بلا ريب هي قد كانت ذات أهمية قصوى لعدة أسباب، أولها:

كان الله نفسه قد زود بهذه التضحية. ينبغي علينا أن نتذكر دائماً أن الإنسان، إذ هو في حالة السقوط، لا يمكنه أن يزود نفسه بوسيلة نجاته؛ هو لا يستطيع أن ينقذ نفسه. ولا بد له من أن يعتمد على رحمة الله. حقاً، لقد كانت تلك الأضحية، الذبح العظيم، كشفاً عن رحمة الله لا لإبراهيم وحده، بل للبشرية بأسرها. فتقديم الله للكفارة من عنده هو تحقيق لوعده تعالى الذي أعلنه في ميثاقه مع الإنسان.

تذكر أن جزء الله من الميثاق كان أن يغفر سبحانه للإنسان ويباركه، لقاء أن يتوب الإنسان ويتواضع ويعبد الله. لذلك نرى أن تضحية القربان تتصل بمسألة الغفران. ويتعيّن علينا في هذا الصدد، أن نُعنى بالرسالة التي تحملها هذه الكلمات من الإنجيل: **"ولا غفران بدون إراقة دمٍ"** (الرسالة إلى العبرانيين ٩:٢٢).

إن حالة الإثم لدى الإنسان هي في منتهى الجدية والخطورة إلى حد أنه لا يمكن تسديد الدين، الروحي، إلاّ بتضحية الحياة مرموزاً إليها "بإراقة الدم".

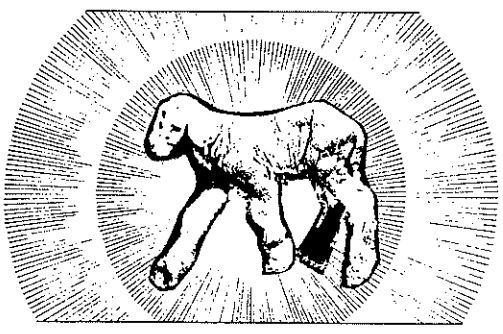

كذلك تتعلق أضحية القربان بالبركة. فقط من خلال القربان الذي زود اللهُ به، يشرع المرء في أن يعي بدقة محبة الرحمٰن الصبورة المعانية. هذه هي المحبة الإلهية التي تفتح الباب إلى بركاتِ ونِعمِ قُربِ الله.

سببٌ آخر للأهميّة القصوى لتلك التضحية هو الدور الذي أدته كبديل عن سواها. فقد شاء الله أن يزود إبراهيم ببديل لأضحيته، وحلّ البديل محل ابن النبي في الموت على المذبح. هكذا برحمة الله، حصل فداء الإبن، وعاد الإبن إلى حضن محبة أبيه سالماً من الموت. وبوسعنا أن نكون على يقين من أن هذا البديل قد كان طاهراً ولا عيب فيه، لأن الله نفسه كان قد قدمه.

وثالث الأسباب المطروقة هنا، هو أن رمزية تلك الأضحية ما زالت تتحدث إلينا في يومنا هذا. فكما أن الله فدى ابن إبراهيم، كذلك رغب تعالى في أن يفدي بني آدم جميعا. لقد كانت تلك الأضحية حقاً رمز رحمة الله ونعمه على الجنس البشري كله. ومنها ندرك أن تضحية القربان في حقيقتها هي ليست ما يرفعه الإنسان إلى ربه، وإنما هي ما ينزله الله إلى عبده. وهبة القربان من الخالق الكريم تمحو الدين الذي لن نستطيع نحن أبداً أن نسدده. وأهم من ذلك تحررنا هذه الهبة الربانيّة وتستردنا إلى حضرة الإله العليّ، فنقيم في محبته إلى الأبد؛ والحمد له تعالى.

إنّ فهمنا لتضحية القربان سوف يفضي بنا إلى فهم أعمق كثيراً للأضحية القدسية، الكاملة والوافية تماماً، التي زود الله بها البشرية جمعاء عدة قرون لاحقة لزمن إبراهيم. كانت هذه الأضحية القدسيّة لتوفي بكل تضحيات الحيوان السالفة. كان لها أن تجسد رحمة الله، أن تكون آية هذه الرحمة التي وحدها تستطيع فداء الإنسان من دين الخطيئة وتحريره واسترداده إلى قرب العلي القدير. **كانت هذه الأضحية القدسية هي المسيح عيسى.** فلله كل الحمد والجلال؛ هو وحده القادر على أن يفتدي بذبح عظيم!